

حين يصبح الصمت خيانة

حكاية رجل اختار الحقيقة،
حين اختار الجميع النجاة بالصمت

رواية

مقدمة

ليست كل المعارك تُخاض بالسلاح، وليست كل الهزائم تُقاس بما نفقده.

هناك معارك يخوضها الإنسان داخل نفسه، بين ما يؤمن به وما يخافه، بين الحقيقة التي يعرفها والصمت الذي يضمن له الأمان.

وفي بعض الأحيان، لا يكون الصمت مجرد غياب للكلام، بل يصبح مشاركة في الظلم، وتخلياً عن أشخاص لم يجدوا من يدافع عنهم.

هذه ليست حكاية رجل خارق، ولا قصة بطل لا يعرف الخوف.

إنها حكاية رجل عادي، عاش مثل الآخرين، وحلم مثل الآخرين، وخاف مثل الآخرين، لكنه وجد نفسه ذات يوم أمام سؤال واحد:
هل يستطيع الإنسان أن يعيش بسلام بعدما يعرف الحقيقة ويقرر تجاهلها؟

الفصل الأول: الرجل الذي اعتاد الصمت

كان المطر يهطل بغزارة في تلك الليلة من شهر نوفمبر.

الشوارع شبه خالية، وأضواء السيارات تنعكس على الأرصفة المبللة، بينما كانت عقارب الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً.

جلس آدم السالمي أمام مكتبه الصغير، يحدق في شاشة حاسوبه دون أن يقرأ شيئاً مما يظهر عليها.

كان في الرابعة والثلاثين من عمره، يعمل منذ تسع سنوات في الإدارة المركزية لإحدى المؤسسات الكبرى المتخصصة في النقل والخدمات اللوجستية.

لم يكن من أصحاب المناصب العليا، ولم يكن يسعى إليها.

حين يصبح الصمت خيانة

كان موظفاً عادياً، يؤدي عمله بإتقان، ويغادر مكتبه في نهاية اليوم دون أن يترك وراءه مشكلات أو عداوات.

لكن الذين عرفوا آدم جيداً كانوا يدركون أن هدوءه لم يكن ضعفاً، وأن صمته لم يكن دائماً علامة رضا.

كان يحمل في داخله أسئلة كثيرة لم يجد لها إجابات.

أكثرها إلحاحاً كان متعلقاً بوالده، يوسف السالمي، الذي توفي قبل خمسة عشر عاماً في حادث سير قيل إنه وقع أثناء عودته من العمل.

كان آدم يومها في التاسعة عشرة من عمره.

حين يصبح الصمت خيانة

يتذكر جيداً ذلك المساء، ويتذكر كيف دخل أحد الجيران إلى المنزل، وكيف جلست والدته على الأرض بعدما سمعت الخبر، وكيف تحولت حياة الأسرة خلال دقائق إلى شيء آخر تماماً.

قيل له إن الحادث كان قضاءً وقدراً.

فصدّق الجميع، أو حاولوا أن يصدقوا.

أما آدم، فلم يستطع يوماً أن ينسى تفصيلاً صغيراً ظل يطارده طوال تلك السنوات.

قبل وفاة والده بثلاثة أيام، قال له يوسف جملة لم يفهم معناها آنذاك:

حين يصبح الصمت خيانة

«يا بني، لا تخف من الإنسان الذي يختلف معك، بل احذر الإنسان الذي يطلب منك أن تصمت عندما تعرف الحقيقة.»

لم يفهم آدم لماذا قال والده ذلك.

لكنه لم ينسَ العبارة أبداً.

في تلك الليلة، كان معظم الموظفين قد غادروا المؤسسة.

نهض آدم من مكانه، وجمع بعض الأوراق، ثم توجه نحو غرفة الأرشيف الموجودة في الطابق السفلي.

كان مكلفاً بمراجعة بعض الملفات القديمة استعداداً لعملية تدقيق داخلية.

حين يصبح الصمت خيانة

فتح الباب، وأضاء المصابيح، ثم بدأ يتفحص الرفوف التي امتلأت بملفات تعود إلى سنوات مختلفة.

كانت الرائحة خليطاً من الورق القديم والغبار والرطوبة.

وبينما كان يبحث عن ملف محدد، لاحظ وجود صندوق كرتوني صغير موضوع خلف مجموعة من السجلات.

لم يكن الصندوق يحمل رقماً أو عنواناً واضحاً.

اقترب منه، وأخرجه بصعوبة.

كان مغلقاً بشريط لاصق قديم، وعلى جانبه كتابة باهتة: «ملفات سنة 2011 – لا تُتلف.»

فتح الصندوق.

حين يصبح الصمت خيانة

وجد داخله مجموعة من الوثائق، وتقارير مالية، وصوراً فوتوغرافية، وبعض المراسلات الرسمية.

في البداية، لم يرَ في الأمر شيئاً مهماً.

لكن إحدى الأوراق جعلته يتوقف.

كان اسمه مكتوباً في أسفل تقرير داخلي، إلى جانب تاريخ يعود إلى أسبوع واحد قبل وفاة والده.

قرأ السطر الأول.

ثم أعاد قراءته.

لم يكن مستعداً لما وجده.

حين يصبح الصمت خيانة

فقد ورد في التقرير أن والده، يوسف السالمي، سبق أن أبلغ عن مخالفات خطيرة تتعلق بعمليات نقل وتوريد وهمية، وأنه طلب فتح تحقيق رسمي بشأنها.

لكن التقرير كان يحمل ملاحظة مكتوبة بخط اليد: «يُوقف التعامل مع هذا البلاغ إلى حين صدور تعليمات أخرى.»

شعر آدم بأن الهواء أصبح ثقيلاً.

أخرج هاتفه، وصوّر الوثيقة.

ثم واصل البحث داخل الصندوق.

وجد صورة قديمة لوالده يقف أمام شاحنة كبيرة، وبجانبه رجل لم يستطع التعرف إليه في البداية.

حين يصبح الصمت خيانة

قلب الصورة.

كانت هناك كتابة قصيرة على ظهرها: «يوسف – كمال – 2011.»

تجمدت عيناه عند الاسم الثاني.

كمال الراوي.

المدير العام الحالي للمؤسسة.

الرجل الذي كان الجميع يتحدث عن نزاهته وقوة شخصيته.

الرجل الذي وقّع قبل أشهر على قرار ترقية آدم.

لم يكن منطقياً أن تكون الصورة وحدها دليلاً على أي شيء.

لكن وجود اسم كمال في الوثائق القديمة، وارتباطه بملف والده، جعلا الأمر أكبر من مجرد مصادفة.

حين يصبح الصمت خيانة

أعاد الأوراق إلى الصندوق، وأغلقه بسرعة.

ثم سمع صوتاً خلفه.

«ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟»

استدار آدم فجأة.

كان حارس المؤسسة يقف عند الباب.

قال آدم محاولاً الحفاظ على هدوئه: «أراجع بعض الملفات القديمة. لدي عمل لم أكمله.»

نظر الحارس إلى الصندوق، ثم عاد بنظره إلى آدم.

قال بصوت منخفض: «أنصحك ألا تفتح الملفات القديمة يا سيد آدم.»

ابتسم آدم ابتسامة خفيفة.

حين يصبح الصمت خيانة

«ولماذا؟»

تردد الرجل قليلاً، ثم أجاب: «لأن بعض الأشياء، حتى بعد مرور سنوات، لا يحب أصحابها أن يتذكرها أحد.»

لم ينتظر الحارس رداً.

استدار وغادر.

بقي آدم واقفاً في مكانه.

وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة، شعر أن الماضي الذي ظن أنه انتهى بدأ يتحرك من جديد.

خرج من المؤسسة بعد منتصف الليل.

كان المطر قد توقف، لكن الهواء ظل بارداً.

قاد سيارته نحو منزله، وعقله منشغل بما قرأه.

حين يصبح الصمت خيانة

.وعندما وصل، وجد والدته جالسة في غرفة الجلوس

كانت السيدة فاطمة في أواخر الستينيات، امرأة هادئة أنهكتها
.السنوات، لكنها احتفظت بذاكرة قوية وحنان لا يتغير

.رفعت رأسها عندما دخل

«.تأخرت اليوم يا آدم»

«.كان لدي بعض العمل»

.وضعت فنجان الشاي على الطاولة

«هل تناولت العشاء؟»

«.ليس بعد»

.نظرت إليه طويلاً

«.هناك شيء يزعجك»

.جلس أمامها

حين يصبح الصمت خيانة

«أمي، هل أخبرك أبي يوماً أنه كان يواجه مشكلات في عمله قبل وفاته؟»

تغير وجهها.

حاولت أن تخفي ارتباكها، لكنها لم تنجح.

«لماذا تسأل؟»

«وجدت بعض الوثائق القديمة.»

صمتت للحظات.

ثم قالت: «آدم، هناك أمور من الأفضل ألا نعيد فتحها.»

شعر بقلبه ينبض بسرعة.

كانت الجملة نفسها التي سمعها من الحارس قبل ساعات.

«أمي، ماذا تعرفين؟»

خفضت عينيها.

حين يصبح الصمت خيانة

«أعرف أن أباك كان رجلاً شريفاً. وكان يؤمن أن قول الحقيقة واجب, حتى لو كلفه ذلك كثيراً.»

«وهل دفع حياته ثمناً لذلك؟»

لم تجبه.

لكن دمعة صغيرة سقطت من عينها.

وفي تلك اللحظة, فهم آدم أن والدته تعرف أكثر مما قالت له طوال السنوات الماضية.

في منتصف الليل, دخل آدم غرفته وأغلق الباب.

أخرج هاتفه, وفتح الصورة التي التقطها للوثيقة.

كبّرها قليلاً.

كانت هناك ملاحظة إضافية في أسفل الصفحة لم ينتبه إليها في البداية.

حين يصبح الصمت خيانة

قرأها ببطء: «في حال تعذر الوصول إلى يوسف السالمي، يُرجى التواصل مع الشخص الثاني الوارد في الملف.»

ثم وجد اسماً مكتوباً بخط واضح: مراد بن عيسى.

شعر آدم بقشعريرة تسري في جسده.

مراد لم يكن مجرد اسم قديم في وثيقة.

كان صديقه المقرب منذ الطفولة.

الرجل الذي يعرف أسراره، والذي وقف بجانبه في أصعب أيام حياته، والذي كان يزور والدته باستمرار بعد وفاة والده.

أغلق آدم الهاتف.

جلس على حافة السرير.

حين يصبح الصمت خيانة

كان السؤال الذي يطارده طوال السنوات الماضية قد أصبح الآن أكثر تعقيداً.

من كان يعرف الحقيقة؟

ومن كان يخفيها عنه؟

ولماذا؟

رن الهاتف فجأة.

كانت رسالة من رقم مجهول.

فتحها.

لم تحتوِ إلا على جملة واحدة: «إذا كنت قد وجدت الصندوق، فلا تثق بأحد... حتى أقرب الناس إليك.»

نظر آدم إلى الشاشة طويلاً.

ثم رفع رأسه نحو الباب المغلق.

كان يشعر أن حياته القديمة انتهت في تلك اللحظة.

حين يصبح الصمت خيانة

وأن شيئاً خطيراً بدأ للتو.

نهاية الفصل الأول.

حكمة الفصل: «أحياناً لا نكتشف أن الحقيقة كانت مخفية عنا، بل نكتشف أن الذين أحببناهم كانوا يعرفونها واختاروا ألا يخبرونا بها.»